الفصل الثالث

ثالث الخلفاء

أبى أمير المؤمنين « عمر » وهو يجود بأنفاسه الطاهرة أن يستخلف أحـــداً .

وحين ألحّ عليه بعض أصحابه كى يختار بنفسه مَن يخلُفه ، استمسك بإبائه ورَفْضه ، وقال لهم :

« أأحملُ أمركم حيًّا وميتاً . . ؟ وَدِدْتُ
أن يكون حظّى منكم الكفَاف ، لا عَلَىَّ
ولا لى . .
« ألا إنى إنْ أستَخلِفْ ، فقد استخلَف
من هو خير منى – يعنى أبا بكر –
وإن أترُك ، فقد ترَك من هو خير منى
– يعنى رسول الله – والله حافظ دينه »

ووَلَّى رُوحه الضارعة شَطْر الله الرحيم العليم ، يسأله أن يُلهمه الرُّشد ، وأسبل جفنيه وأعمل فكره . . وعلى الفور لاح له من الله نور . وكأنما

تذكّر ذلك اليوم البعيد القريب ، وقد أرهفوا السمع لرسولهم الكريم يعظهم ويناديهم قبل وفاته بأيام .

« أيها الناس . .

« إن أبا بكر لم يَسُؤْنى قط ، فاعرفوا له ذلك . .

« أيها الناس . .

« إنى رَاضٍ عن عمر ، وعلى ، وعثمان ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن مالك ، وعبد الرحمن بن عوف ، والمهاجرين الأولين ، فاعرفوا لهم ذلك » .

على ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن .

ما أجلّها من ذكرى ، تعود الآن فى أوانها . .

فليكن لهؤلاء الستة الذين منحهم الرسول كل هذا التكريم . عاقبة الأمر الذى يشغل الأمير المحتضَر . وليُضَع فى أعناقهم مجتمعين ، الأمانة التى حملها طوال سنى خلافته فى مثل عَزم المرسلين ، وهكذا جمعهم حوله ، ووجّه إليهم الحديث :

« إنى نظرت فوجدتكم القادَة ، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنكم راض ، وإنى لا أخاف الناس عليكم ، ما استقمتم.

« فإذا أنا مِتّ فتشاوروا ثلاثة أيام ، ولا

يأتى اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم . .
« وليحضر معكم عبد الله بن عمر مشيراً ،
ولا يكون له من الأمر شيء . . . »

* * *

كان « طلحة » غائباً عن المدينة . فاجتمع بقية الصحاب الذين وضع « عمر » الأمانة فى أعناقهم قبل رحيله .

واقترح عليهم « عبد الرحمن بن عوف » أن يخلع أحدهم نفسه ويتنازل عن حقه فى الترشيح ليكون صوته مُرجحاً إذا قام خلاف .

وبادر فخلع نفسه . . ثم تنازل « الزبير » عن حقه لـ « على » وتنازل « سعد بن أبى وقاص » عن الترشيح أيضاً . وهكذا انحصر الاختيار بين « عثمان وعلى » وفُوِّض « عبد الرحمن بن عوف » فى اختيار أحدهما . .

كان على « ابن عوف » أن يُنجز المهمة فى الأيام الثلاثة التى أوصاهم الخليفة الراحل ألاّ يجاوزوها .

وكان عليه خلال هذه المهلة القصيرة أن يُجرى شورى واسعة واستفتاء عميماً بين أصحاب الرسول جميعاً .

وهكذا راح يذرع المدينة ويقرع أبواب دورها .

يقول « ابن كثير » :

« نهض عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه
يستشير الناس ويجمع رأى المسلمين عامَّهم
وقادتهم — جميعاً وأشتاتاً . . مَثْنى

وفُرادَى ومجتمعين . سرًّا وجهراً ، حتى
خلص إلى النساء المحجَّبات فى بيوتهن ،
وحتى سأل الولدان فى المكاتب ، وحتى
سأل الركبان الوافدين على المدينة » . .

ونُواصِلُ سيرنا مع « ابن كثير » لنرى معه كيف تمَّ الأمر ، وكيف حمل « عثمان » أمانة الحكم - وما أفدحها من أمانة . . ! !

« . . . ثم أرسل عبد الرحمن فى طلب عثمان وعلى ، فقدما عليه ، فأقبل عليهما وقال لهما : إنى سألت الناس عنكما ، فلم أجد أحداً يعدل بكما أحداً . .

« ثم أخذ العهد على كل منهما لَئِنْ ولاه لَيَعْدِلن ، ولَئن وُلِّىَ عليه لَيَسْمعن ، ولَيُطِيعَن . .

« ثم خرج بهمــا إلى المسجــد وقد لبس عبد الرحمن العمامة التى عمَّمه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقلَّد سيفاً ، وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ، ونودى فى الناس كافَّة : الصلاة جامِعة . . وتراصَّ الناس حتى غصَّ بهم المسجد ، وحتى لم يبق لعثمان موضع يجلس فيه إلا فى أخريات الناس - وكان رجلا حَيِياً -

« ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله عليه السلام ، فدعا دعاء طويلا ثم تكلم فقال : أيها الناس ، إنى قد سألتكم سرًّا وجهراً ، فلم أجدكم تعدلون بعلى وعثمان أحداً . .

« قُمْ إلىَّ يا على . . فقام إليه وأخذ عبد الرحمن بيده وسأله : هل أنت مُبايعى على كتاب الله وسنة نبيه ، وفعل أبى بكر وعمر . . ؟

« قال على : على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيى :

« ثم قال : قُم إلىَّ يا عثمان فقام إليه فأخذ بيده وقال له هل أنت مُبايعى على كتاب الله وسنة رسوله ، وفعل أبى بكر وعمر . . ؟

« قال عثمان : اللهم نَعم .

« فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده فى يد عثمان وقال : اللهم اسمع واشهد . . اللهم إنى قد جَعلت ما فى رقبتى من ذلك فى رقبة عثمان . .

« وازدحم الناس على عثمان يبايعونه » . . .

* * *

كانت أول يمين شَدَّت بالبيعة على يَمِينه ، يَمين «على بن أبى طالب» . . وتتابع المسلمون جميعاً يُبايعون :

وهكذا حمل «عثمان» أثقال الخلافة . . حملها وهو على وَشْك أن يستقبل السبعين من عمره . . تُرى هل كان بها حَفِياً وعليها حريصاً . ؟ ؟

فيما نعلم من طبائع البَشر ، فإن سن السبعين ليست السِّنَّ المناسبةَ للطموح ، ولا السِّنَّ التى تتفتَّح فيها الشَّهِياتُ لمتاعب السلطان ؛ فكيف وصاحب هذه السِّنِّ رجل يسيطر الحياء على حياته . والحياء يدفع أصحابه دائماً إلى الظِّلال . . ؟ ؟ ! !

ثم كيف ، وصاحب هذه السِّنِّ رجل يتلقى المسئولية على وَقع نذير رهيب يتمثل فى اغتيال خليفة تحدَّث الجريمة عدلَه وورَعَه وبأسه ونفوذه العظيم الرحيب . . ؟ !

أغلب الظن أن «عثمان» رضى الله عنه تلقى البيعة وهو يرتجف .

ولعلّها تُشير إلى هذا المعنى ، تلك الرواية التى تُحدثنا أن الخليفة بعد تلَقِّيه البيعة من أهل الشورى توجَّه إلى المنبر وعلى محيَّاه اكْتِئاب . .

ولعلّ هذه الخشْية لجلال المسئولية ، هى التى أمسكت لسانه عن الإفاضة فى أول خطبة ألقاها . . فاكتفى بأن حذر الناس من الدنيا وغرورها . . ورغَّبهم فى الآخرة وحبُورها . .

ولولا ضغط الموقف وثقل المسئولية لأفاض . . فما كان رضى الله عنه عاجزاً عن الحديث ولا عَيِيًا . .

يروى عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قوله :

« ما رأيتُ أحداً كان إذا حَدَّث أتمَّ

حديثاً ولا أحسنَ من عثمان ؛ إلا أنه كان رجلا يهابُ الحديث » . .

ومن الطبيعى أن يكون هياباً للحديث ، ما دام يتحكم فيه هذا القَدر المفيض الهائل من الحياء .

فإذا انضاف إلى حياته الشديد وطأة المسئولية الفادحة ؛ فإن خطبته السريعة العاجلة يومذاك تعطينا أول صورة من صُوَر المجابَهة المضنية التى ستقوم بين الخليفة الشيخ ، ومسئولياته الثِّقال الجِسام .

* * *

على أنه مهما تكن وطأة المسئولية ؛ فإن « عثمان » بما معه من إيمان وأمانة سيعطى المسئولية حقها ، وسيُباشر على الفور تبعات البيعة التى أعطاها ، والبيعة التى تلقاها . .

لقد أعطى عهده ومَوْثِقَه أن يسير على سنة الرسول ونهج صاحبيه أبى بكر وعمر . . وهو حين أعطى ذلك العهد لم تكن نواياه منفصلة عن كلماته ، ولم يكن عزمه متخلفاً عن نواياه ، لكنه مع ذلك كان يدرك أن قدرته محدودة ، وأن صاحبيه الراحلين ، لا يُدْرَك شَأْوُهُما ، ولا يُنَالُ مَداهما . .

وإنه الآن ليذكُر ذلك اليوم الذى أطلَّ فيه من نافذة داره ، فأبصر على البعد رجلا يجرى فى قيظ النهار وهجير الصحراء ، فظنَّه غريباً نزل به كرْب عظيم ، ولبث مُطلاًّ من نافذته حتى يعود ذلك الرجل الملهوف فيدعوه إلى ظِلِّ داره ويُغيثه من لهفته . .

وكم كانت دهشته وعجبه حين اقترب الرجل ؛ فإذا هو أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » ممسكاً بخطام بعير يتهادى وراءه .

وسأله عثمان : من أين يا أمير المؤمنين . . ؟

وأجابه عمر : من حيثُ ترى . . بعير من إبل الصدقة نَدَّ هارباً فأسرعت وراءه ، ورجعتُ به ! !

وعاد « عثمان » يسأل : ألم يكن هناك من يقوم بهذا العمل سواك .

وأجابه عمر : ومَن يقوم مقامى فى الحساب يوم القيامة . . ! !

ودعاه « عثمان » إلى الراحة حتى تنكسر حِدَّة الهجير ، فما زاد « عمر » على أن قال ودموعه الورِعَة تسيل من مآقيه : [عُدْ إلى ظِلِّك يا عثمان] . . ! !

ومضى لسبيله ، وعينا « عثمان » متعلقتان به حتى غاب عنهما . . وراح « عثمان » يُتَمْتِم قائلا :

« لقد أتْعَبْت الذين سيجيئون بعدك » ! !

* * *

إنه الآن وقد صار خليفة ، وشاء له القدر أن يكون أول رجل يجىء بعد « عمر » لَيذكُرُ هذه الواقعة وعشرات الوقائع مثلها ، فيأخذه الإشفاق على نفسه وعلى أمته .

إنه يجىء على أثَر خليفتين ليس لهما نظير .

ويجىء بصفة خاصة بعد عشر سنوات « عُمَرِيَّة » فرض فيها « الفاروق » على المسلمين منهجه الصارم ، وعَدله المكين ، وحمل وُلاته وعُماله على مثل ما حمل عليه نفسه من زهد وتقشف وعَناء .

كما يجىء والدولة تتسع رقعتها بغير حساب ، وتتلاطم تحت رايتها أجناس شتَّى . . متباينة الطبائع والغايات .

كذلك يجيء والدنيا قد فُتحت على المسلمين فتحاً عريضاً ، بحيث أصبحت دخولهم من التجارة ، وأنصبائهم المشروعة من الفيء ومن العطاء تزيد على احتياجاتهم زيادة تنقل الكثيرين منهم إلى عداد الأثرياء ، وكبار الأثرياء .

كان « عمر » رضى الله عنه يرى إقبال الدنيا وهى فى بدايتها فيرتجف إشفاقاً على المصير . . ويقول :

« إن للمال ضراوة كضراوة الخمر » . .

ويذكر قول الرسول عليه السلام لأصحابه يوماً :

« والله ، ما الفقر أخشى عليكم ، ولكنى أخشى أن تُفتَح عليكم الدنيا فتنافَسوها »

وها هى ذى قد فُتِحتْ ، وها هو ذا « عثمان » يُدعَى ليحمل المسئولية ويمسك الزِّمام . .

تُرى هل سيُحسن استخدام الشكائم التى استخدمها سلَفه العظيم « عمر » فى مهارة تبهر الألباب ؟ ؟ ! !

إن الرجل اللَّين الجانب ، الهادئ السَّمْت ، الوديع الطيب ليُدرك أن العِبْء ثقيل ، وأن أثقل ما فيه هذه الدنيا التى أقبلت بكل إغرائها الخَطِر على المسلمين ، والتى زاد انفلاتها نحوهم وتطويقُها لهم عندما انكسر السدُّ المنيع الشاهق الذى كانَ يصدها ويُنثيها . .

بل لا نكاد نشك فى أن « عثمان » كان يدرك أيضاً أن أكثر الذين رحَّبوا باختياره للخلافة دون « عَلِىّ » كرم الله وجهه . . إنما فعلوا رغبة منهم فى الانعتاق من تزمُّت الحياة وتقشف المعيشة اللذين طالت معاناة

الناس لهما ، واللذين كانا سيفرضان عناءهما من جديد لو تسنّم الأمر « على بن أبي طالب » الذى كان بمنهجه الصارم وعدله المكين ، وبورعه وبتقشّفه ، يمثل امتداداً واضحاً وأكيداً لصرامة « عمر » وعدله ، وتقشفه ، وورعه .

كل ذلك – فيا نحسب – لم يغب عن بال الخليفة الثالث « عثمان » .

ومن أجل ذلك لانخاله إلا قد رأى فى الدنيا المقبلة على المسلمين أعْصَى مشكلات عهده .

ومن أجل ذلك أيضاً ، كانت أُولى كلماته إلى الناس فى أول خطبة له ، التنبيه لهذا الخطر قبل أن يستفحل فلا يستطيع ولا يستطيع المسلمون له دفعاً . . وهكذا وقف بعد تمام البيعة يقول :

« . . إن الدنيــا طُوِيَتْ على الغرور ؛
فلا تَغُرَّنكم الحياة الدنيا ، ولا يَغُرَّنكم
بالله الغَرور .

« . . . ارموا بالدنيا حيث رمَى الله بها ،
واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب للدنيا
مثلا فقال : [وَاضْرِب لَهُمْ مَثَلَ الحَيَاةِ
الدُّنْيــا كَماءٍ أَنْزَلْنــاهُ مِنَ السَّماءِ ،
فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ
هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ ، وكانَ اللهُ عَلَى
كُلِّ شَيءٍ مُقْتَدِراً .
« المالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيــا .

والباقِياتُ الصَّالحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً
وخَيْرٌ أَمَلاً » . .

* * *

على أن موقف الخليفة الثالث من مشاكل الثراء ظلَّ مختلفاً فى التقدير وفى النتائج عن موقف سلفه أمير المؤمنين .

فبينما الاثنان متفقان على أن الثراء المتفاقم يُشكل خطراً على المسلمين الذين نذروا حياتهم للدعوة والجهاد ، والذين زَيَّن لهم دينهم أن يكون زادُ أحدهم من الدنيا كزادِ الرّاكب ، نجد نهجيْهما فى مقاومة هذا الخطر يختلفان . . فأما أمير المؤمنين « عمر » فيركِّز على قَمع الاستمتاع المشروع بهذا الثراء ، ويقاوم الاستسلام لطيبات الحياة الدنيا . . وهو يبدأ هذا القَمع وهذه المقاومة مع نفسه وأهل بيته وعشيرته ، ثم مع وُلاته وعماله ، فلا يكاد يسمع عن وال ترفُّه فى ملبسه أو فى مطعمه حتى يستدعيه إليه فى المدينة ويزجره ويُعنِّفه ، فإن عاد إلى استسلامه للنعيم أقصاه وعزله .

ولقد كان يريد بهذا أن يجد عامة الناس فى ولاتهم قدوة تُعينهم على عدم الاستسلام لمغريات الثراء وأطايب الحياة وترف المعيشة .

هذا كان نهج « عمر » . .

أما الخليفة الثالث « عثمان » فكأنما كان يرى أن المال إنما خُلق لجعل الحياة مُوطَّأة الأكناف . . وما دام الثراء حلالا ، والاستمتاع مشروعاً ، فليكن للناس حظوظهم من طيبات الحياة ونعيمها ،

لا فرق بين الأمراء والوُلاة والعامَّة . . وهى وجهة نظر تتّسِق مع نشأته وسجاياه .

أجَل . . لم يجد « عثمان » من حقه – مثَلا – أن يعزل والياً رَغِدَ عيشه ، وترفّهت حياته . واغترف من طيبات الدنيا بكلتا يديه ، ما دام فى استمتاعه هذا لا يَجْترح منكرًا ولا يُقارِف إثماً .

ولم يضع الخليفة فى حسابه ما وضعه « عمر » من قبل فى حسابه من أن للمال ضراوةً كضراوة الخمر ، وأن للحلال أحياناً فتنة وخطرًا كفتنة الحرام وخطره ، وأن النفس البشر ية طامعة دائماً فى المزيد . وإذا لم يُفرض عليها الفِطام عن كثير من الطيبات المباحة ، سهُل إباقُها وانفلاتُها نحو المتاع المحظور . . ! !

* * *

على أية حال ، فقد اختير « عثمان » للخلافة ، وهو واثق من أمانته على دين الله ، وعلى مُقدَّرات الدولة والأمة اللتين حمل مسئولية الحِفاظ عليهما . . وهو كخليفة ، له الحق فى اختيار الأسلوب الذى يمارس به سلطته ، ما دام واضعاً عينيه دائماً على الأسس الرئيسَة التى شرعها الله ، وسار عليها رسوله وصاحباه .

وهكذا بدأ فى ظل تلك المبادئ الوُثْقى يُباشر مَهامَّه ومسئولياته فى عزم وسداد .

وسنصحبه الآن فى بعض إنجازاته المتألقة . فنراه يبدأ كما يحدثنا ابن كثير ،

[بالكتابة إلى ولاة الأقاليم ، وأمراء الحرب والأئمة على الصلوات ،

والأمناء على بيوت المال ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويَحثُّهم على طاعة الله وطاعة رسوله ، ويَحضُّهم على اتباع السنة وترك الإحداث والابتداع] . .

ورأى بيت المال عامراً ممتلئاً ، فزاد فى عطاء الناس ، واتخذ فى المسجد سماطاً يقدم عليه بصورة دائمة الطعام الطيب للمعتكفين والمتعبدين وأبناء السبيل .

بيد أنه لم يكد يستقر فى منصبه ويتهيأ لإنجاز ما كان يود إنجازه من إصلاح ، حتى فُوجئ بالانتفاضات المسلحة تنقضّ على الدولة من كل مكان .

لقد نقضت دولة الروم عهودها السابقة ، وكذلك فعلت بعض المقاطعات الفارسية .

لكأنما كان مقتل « عمر » رضى الله عنه إشارة البَدْء بين قوى التمرُّد ، فقامت قومة واحدة فى « أذربيجان » و « أرمينية » وأغار الروم بأسطولهم على « الإسكندرية » و « فلسطين » وسرت النار مُطوِّقة الدولة العريضة المتراحبة .

لم يكن التمرد من شعوب تلك البقاع ، فلقد كان فرحها بالإسلام عظيماً يوم ذهب إليها وحررها من طغيان فارس والروم .

إنما جاء التمرد من فلول القوى التى كانت تملك قبل الإسلام وتسُود . . لكنها لم تكن فلولا قليلة ولا ضعيفة ، ولقد زاد فى قوتها ماأشاعوه بين الجماهير فى بلادهم من أن الإسلام قد انتهى ، وأن خليفته القوى « عمر » قد اغتيل بيد مَجوسى منهم ، وأن الفوضى شبَّت فى البلاد . .

ولقد أغرى زعماء تلك الفتنة ما علموه من أن الخليفة الجديد رجل فى سن السبعين .

ولم يكن لـ « عثمان » رضى الله عنه بطولات مسموعة مثل « خالد ابن الوليد » مثلا ، أو « سعد بن أبى وقّاص » أو « على بن أبى طالب » بل إن اسمه لم يكن يتردد بين الأسماء الجهيرة خارج المدينة ، لا لشىء إلا لأن حياءه وهدوءه كانا يَجْنحان به دوما إلى الظِّلال .

كل ذلك أغرى المتمردين بالانتقاض . .

ورأى ابن السبعين عاماً نفسه مطالباً بأن يُرِىَ هؤلاء الحمقى الخارجين ، أن أصحاب « محمد » صلى الله عليه وسلم لا يُقاس اقتدارهم بضخامة الأجسام ، ولا بما يحملون فوق كواهلهم من سنين وأعوام . . بل بما وقَر فى قلوبهم من إيمان بالله وبوعده ، وبرسوله وبدينه .

هنالك لم يُضيع لحظة فى تفكير . . ! !

لم يتلفّت ذاتَ اليمين ولا ذاتَ الشمال . . ! !

لم يسأل أحداً – حتى مجرد سؤال – ماذا يجب أن يَصنع . . ؟

لقد حدد له ضميره المؤمن الطريق .

وعلى الفور أصدر أوامره بإطفاء النار وقهر المرتدين .

ليس ذلك فحسب ، بل أصدر أوامره أن يجاوز الفتح تلك البقاع المتمردة إلى حدود أبعد ، حتى لا تبقى أطرافاً للدولة يسهل عليها التمرد كلما تشاء . .

ولقد اختار بنفسه قواد الجيوش التى ستقوم بهذه المهام .

ومن عَجب أن أحداً منهم لم يخسر معركة قط إذا استثنينا معركة واحـــدة .

لقد كان « عثمان » يومئذ يفكر ويُقدِّر ، ويَعزم ويَحزِم ؛ وكأنما قد حلَّ داخل إهابه شبابُ التاريخ . . ! ! !

إن هذا الخليفة العظيم الكَهْل لَيبهرُنا بمضاء عزمه وروحه خلال تلك الأحداث . فحين رأى أن ضرورات القتال واحتياجات النصر تتطلب تجهيزات بحرية وإنزال أعداد ضخمة من الجنود إلى البحر لم يتردد ، مع أنه يعلم أن « عمر بن الخطاب » ظلَّ طوال خلافته يرفض هذه المُخاطرة .

ولقد رأى القواد والجنود يومئذ هذا الروح المتألق من خليفتهم الشيخ فازدادوا بدورهم مضاء ومقدرة واستبسالا .

* * *

بدأ الخليفة مجابهة القوى المتمردة التى حملت السلاح ضد الإسلام ودولته ، فى « أذربيجان » و « أرمينية » اللتين نقضتا العهد الذى كانتا قد أبرمتاه من قبل . . . فسيَّر إليهما جيشاً بقيادة « الوليد بن عقبة » فردهم إلى صوابهم ، ووقَّعوا معاهدة بالشروط نفسها التى كان قد أنزلهم عليها من قبل « حذيفة بن اليمَان » رضى الله عنه .

وبينما كان الوليد وجيشه راجعين إلى الكوفة ، جاءتهم الأنباء بأنّ الروم تتحرش بالشام . وجاءت هذه الأنباء مشفوعة بأمر الخليفة للوليد أن يجهز عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة رجل [أمين كريم شجاع] .

ولننظر كيف تبزغ طباع الخليفة فى هذه اللفتة ، فهو يأمر الوليد أن يختار لقيادة هذا الجيش رجلا « كريماً » . .

إن أبا السخاء الذى لا يعرف سخاؤه حدوداً ، يتفاءل بالسخاء ، ومن ثَمَّ يتفاءل بالقائد إذا كان سخياً جواداً . . ! !

وأنجز « الوليد » أمر الخليفة ، فاختار الجيش ووضع على رأسه قائداً شجاعاً سمحاً هو « حبيب بن مسلمة الفهرى » . .

سار « حبيب » بجيشه الذى لا يجاوز عشرة آلاف جندى ، بل لعلّه كان دون هذا العدد ، وأقبل الروم والترك فى جيش قوامه ثمانون ألفاً . .

وكانت زوجة القائد « حبيب بن مسلمة » مجندة فى جيش المسلمين وقبل أن يبدأ القتال سألته :

– أين ألقاك إذا حَمِيَ الوطيس وماجَت الصّفوف . . ؟

فأجابها الزوج القائد :

– فى خَيْمة قائد الروم . . أو فى الجنّة . . ! !

الله أكبر . . ! !

والْتقى الجيشان ، لتدور الدوائر آخر الأمر على جيش الروم والترك . . ولم يقف « حبيب » عند هذه الجولة الظافرة ، بل سار متوغلا فى بلاد الروم ، يفتح الحصون الشاهقة حِصْناً وراء حِصْن ويفتح أبواب الإسلام والحريـة أمام جماهير عريضة طالما انتظرت أيام الخلاص . . ؟ !

* * *

وكانت مقاطعة « الرى » قد نقضت هى الأخرى عهدها وتمردت ،

فزحفت عليها قوة بقيادة « أبى موسى الأشعرى » ردت المتمردين إلى الجادّة ، وأنزلتهم مرة أخرى على العهد القديم الذى كان قد واثقهم عليه « حذيفة بن اليمان » . .

* * *

والتفت الخليفة الرابض فى « المدينة » عاصمة الإسلام صَوْب الإسكندرية التى جاءته أنباؤها بأن الأسطول البحرى للروم قد أغار عليها ، كما أن أعداداً هائلة من المشاة والركبان يزحفون نحوها ، فأرسل الخليفة بأوامره إلى « عمرو بن العاص » واليه على مصر ، كى يسير بجيشه إلى الإسكندرية . . وهناك أصْلَى المغيرين سعيراً ، وأنزل بالمتمردين هزيمة استأصلت شأفتهم إلى الأبد ، وفى الوقت نفسه كان « معاوية » « يفتح » قنسرين وكان « عثمان بن أبى العاص » يقهر التمرد الناشب فى « اصطخر » ويعيد فتحها من جديد . . ! !

وإلى الشمال الأفريقى بعث الخليفة جيشاً كبيراً بقيادة « عبد الله ابن سعد بن أبى سرح » وأرسل معه « عبد الله بن عمر » و « عبد الله ابن الزُّبَيْر » .

وأقبلت جيوش البربر بقيادة ملكهم فى أعداد ضخمة قدرها بعض المؤرخين بمائتى ألف مقاتل .

وكان لقاء رهيباً ، أبْلى فيه المسلمون بلاء باهراً ورائعاً ، لا سيما « عبد الله بن الزبير » الذى شهدت منه هـذه المعركة بسالة منقطعة النظير .

وكُتب النصر المبين للمسلمين ، وعاد جيشهم الظافر بما لا حصر له من الأسرى ، ومن الغنائم ، والأموال . . ! !

* * *

ورأى الخليفة « عثمان » رضى الله عنه وأرضاه أن الأسطول البحرى للروم يتخذ من جزيرة « قبرص » مُنطلَقاً لعدوانه . فقرر غزوها . .

ولكن كيف . . ؟ والمسلمون لم يمتطوا ثَبَجَ البحر من قبل فى قِتـــال .

وأميرهم العظيم الراحل « عمر » كان كما أسلفنا من قبل ضد كل مخاطرة من هذا القَبيل .

لقد تدارس « عثمان » الأمر مع بعض أصحابه ومشيريه ، واقتنع بحتمية هـــذه المخاطرة . . ولأول مرة شهد التاريخ ميلاد « البحرية الإسلامية » .

أذِن الخليفة لمعاوية بغزو « قبرص » فأبحر إليها من الشام ، وأمده الخليفة بجيش آخر بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى سرح .

وأطبقت القوتان العارمتان على الجزيرة فاستسلمت ووقعت الصلح الذى فرضه المسلمون .

وفى هذه الغزوة تحققت نبوءة قديمة للرسول صلى الله عليه وسلم . .

ذلك أنه كان عليه السلام يَقيل يوماً فى دار « عُبادة بن الصامت » رضى الله عنه ، ونهض من نومه وهو يضحك ؛ فسألته « أم حرام بنت ملحان » عمَّا أضحكه . . فقال الرسول :

« ناسٌ من أمتى عُرِضُوا عَلَىَّ يركبـــون ثَبَج

هـذا البحر مثل الملوك على الأسِرَّة » .

فقالت : يا رسول الله ، أدعُ الله أن يجعلنى منهم . .

فقال لها الرسول : أنتِ منهم . .

ونام الرسول ثانية ، ثم استيقظ وهو يضحك . . ويقول :

« ناس – آخَرون – من أمتى عُرضوا علىَّ يركبون ثبج هذا البحر ، مثل الملوك على الأسِرّة » .

فقالت « أم حرام » : يا رسول الله ، أدعُ الله أن يجعلنى منهم .

فأجابها الرسول : أنتِ من الأوّلين .

كانت هذه الواقعة ذائعة بين الصحابة أيّام كان الرسول معهم لم يفارقهم بعد إلى الرفيق الأعلى ، وكانوا ينتظرون تأويلها ويعجبون كيف يركبون البحر مثل الملوك على الأسِرَّة ! ! حتى جاءت غزوة « قبرص » هذه ، فركبوا ثَبجَ البحر لأول مرة ، وكانوا فوق سُفنهم الكبيرة الظافرة كالملوك فوق أسِرَّتهم وعروشهم . .

وفى هذه الغزوة خرج مع الجيش « عبادة بن الصامت » ومعه زوجه « أم حرام بنت ملحان » رضى الله عنهما . وتحققت نبوءة الرسول الصادق الأمين لها حين قال لها : [أنت منهم] . . .

ولعلكم تذكرون أن الرسول عندما استيقظ ضاحكاً للمرة الثانية وهو يقول :

« ناس . . آخرون من أمتى يركبون ثبج هذا البحر » .

وسألته « أم حرام » أن يسأل الله لها كى يجعلها منهم ، أجاب الرسول قائلا : [أنتِ من الأولين] . .

وهنا تستكمل النبوءة صدقها الرائع وبهاءها الجليل ، فإن « أم حرام » لم تعش حتى تركب البحر مع الآخرين . . لقد ماتت بعد انتهاء معركة « قبرص » ودفنت هناك ، وعُرف قبرها الطاهر فيما بعد باسم « قبر المرأة الصالحة » . . ! !

* * *

وجاءت غزوة « الصوارى » لتؤكد صلابة الدولة المسلمة تحت خلافة « عثمان بن عفان » فقد جمع « قسطنطين » امبراطور الروم جيوشاً لَجِبَة لم يلتق المسلمون من قبل بمثل كثرتها عدداً وعَتاداً . .

خرج قسطنطين بجيشه الجرار هذا على ظهور خمسمائة سفينة ، زاحفاً على بلاد المغرب ليلاقى بها « عبد الله بن سعد بن أبى سرح » .

وجمع عبد الله جيشه ونزلوا بسفنهم إلى البحر . والتقى الجمعان فى معركة تتحدى ضراوتها كل وصف . ودعاهم قائد المسلمين ليخرجوا إلى البر ، ويتقابل الجيشان فوق الأرض الصلبة . فأبوا ذلك . . عندئذ أسرعت فرقة من جيش المسلمين فربطت سفنهم بسفن الروم بعد أن أدنَوها منها ثم راحوا يجتلدون بالسيوف والخناجر . . كان ضحايا المسلمين وشهداؤهم من الكثرة إلى حد فادح ، بيد أن قتلى الروم كانوا أضعاف أضعافهم ، وانتصر المسلمون انتصاراً حاسماً ، وهرب قسطنطين بجسده الذى أدمته السيوف وأثخنته الجراح .

* * *

وهكذا سارت جيوش الخليفة تحت راياتها المنتصرة إلى كل مكان . .

فمعاوية يوغل فى بلاد الروم حتى يقرع أبواب « القسطنطينية » ذاتهـا . .

وإلى فارس ، وكرمان ، وسجستان ، وخراسان ، ومَرْو . . يزحف ابن عامر ، والأحنف بن قيس ، والأقرع بن حابس ، فيفتَحون ويظفرون . . ومهّدت الأرض لزحف المسلمين الجَسور حتى بلغوا السودان والحبشة فى الجنوب ، والهند والصين فى الشرق .

والخليفة الكهْل الذى كانت سِنّه قد بلغت السابعة والسبعين رابض فى المدينة ينعم بفتح الله عليه وعلى جيوشه .

ومع الجيوش العائدة من معاركها بالنصر ، كانت الغنائم والأموال تتدفق على العاصمة وكأنها أبواب السماء فُتِحتْ بماء مُنْهَمِر . . ! !

لقد أخلَفَتْ كُلَّ الظنون ، تلك السنوات العظيمة المتألقة ، للخليفة الذى أساء أعداء الإسلام به الظنون ! !

ولم يشغله ذلك الجهاد الموصول ، والغزوات المتلاحقة عن اهتمامه بالعِمارة .

فراح يُجمِّل المدينة ، ويزيد فى بناياتها وعمارتها ، مبتدئاً بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فوسَّع فيه وبناه بالحجارة المنقوشة ، واتخذ عُمُدَه من الحجارة المرصَّعة .

ولئن بهَرنا الحزم والتوفيق اللذان صاحبا « الخليفة عثمان » فى مجابهته الحاسمة لقوى الشر الزاحفة على الإسلام تريد أن تطفئ نوره .

فلسوف يبهرنا بصورة مماثلة أو تزيد، إنجازه الرائع العظيم فى جمع المسلمين على مصحف واحد ، حُفِظ القرآن بين دفَّتيه إلى يوم الدين .

* * *

نحن نعلم أن القرآن كانت تتنزّل آياته على الرسول الأمين مفرقة وَفق ظروفٍ وأسباب نزولها ، وكان من بعض أصحاب الرسول نَفر اختارهم ليكتبوا الآيات المنزلة أولا ، فأوّلا .

وكان الصحابة يتناقلون الآيات المنزلة ، يعتمد بعضهم على قوة ذاكرته فيحفظها ، ويسطرها بعضٌ آخر حيث يحتفظ بها مكتوبة .

وفى عهد الخليفة الأول « أبى بكر الصديق » رضى الله عنه قرر بمشورة من « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه أن يجمع القرآن – فعهد إلى الصحابى الجليل « زيد بن ثابت » بالإشراف على هذه المهمة المقدسة . وكان « زيد » أقدر المسلمين على ما نُدب إليه ؛ إذ كان يحفظ القرآن كله . . كما كان أكثر كتاب الوحى ملازمة للرسول .

وجمع « زيد » القرآن باذلا من وعيه ويقظته وأمانته جهداً خارقاً ، مستعيناً بعدد كبير من الصحابة الذين كان بعضهم يحفظ القرآن وبعضهم يحتفظ به مسطوراً .

وهكذا صارت الآيات التى كانت متفرقة فى صدور الرجال أو على ألواح الكتابة مصحفاً واحداً مُرتّب السُّور والآيات ، معروف البَدء والمنتَهَى .

وحفظ المصحف عند « أبى بكر » ومن بعده انتقل إلى « عمر »

* * *

خلال عهد « عمر » شرعت الفتوحات الإسلامية تطوى البلاد طيًّا ، وآل إلى الإسلام كثير من الأرض التى كان يحثم فوقها طغيان فارس والروم .

وخلال عهـد « عثمان » بلغت الفتوحات آمادًا أبعد ، وآفاقاً أرحب .

ومع هذا الفتح العظيم فى عهد « عمر وعثمان » كان الإسلام يستقبل شعوباً مختلفة اللسان . . ونما المجتمع الإسلامى نمواً هائلا ، انتظم بين موجاته تبايُناً كثيراً .

وكان أسرع مظاهر هذا التبايُن فى الكشف عن نفسها وعن عواقبها – اللَّهجات .

ففى بعض الغزوات التى اشترك فيها الصحابى الجليل « حُذَيْفة ابن اليمان » راعَتْه الطرائق الكُثر التى يُقرأ بها القرآن .

صحيح أن عرب الجزيرة العربية أنفسهم كانت لهم لَهجات مختلفة ، بيد أن لغة قريش التى نزل القرآن بها كانت قد استقطبت معظم تلك اللهجات وبوتقتها فى لغة واحدة صارت « اللغة الأمّ » وحتى حين كان يندر حدوث خلاف حول قراءة بعض آى القرآن الكريم فى أيام الوحى ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفصل فى الأمر بإيثار قراءة واحدة حيناً ، أو بإقرار القراءات المختلَف حولها حيناً آخر .

أما بعد الفتح الكبير ، وبعد أن أصبح القرآن كتاب شعوب كثيرة ، لكل منها لهجتُه ولسانه ، فقد أمسى الاختلاف فى قراءته مصدر خطر عظيم ، وهو خطر يهدد وحدة الأمة الجديدة المنتشرة

فى الأرض أكثر مما يهدد القرآن ذاته . . فالقرآن تكفّل الله بحفظه حين قال سبحانه :

« إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ، وإنَّا لَـهُ لَحَافِظون » .

ولقد ظهر هذا الخطر فى الواقعة التى شهدها « حذيفة » إذ نشب خلاف مُفزع بين أهل الشام وأهل العراق . .

كان أهل الشام يقرأون على قراءة المقداد بن الأسود وأبى الدرداء . .

وكان أهل العراق يقرأون على قراءة عبد الله بن مسعود وأبى موسى الأشعرى .

وتعصَّب كل من الطائفتين لقراءته ، وكاد الخلاف يُمسى نزاعاً ، فصِداماً .

ولم يكد « حذيفة بن اليمَان » يفرغ من تلك الغزوة التى كان يشارك فيها بجهاده حتى امتطى راحلته ، يُسابق الريح إلى المدينة : وهناك وضع القضية بين يدى الخليفة الراشد ، مختتماً حديثه بقوله :

« يا أمير المؤمنين . .

« أدرِكْ هذه الأمة قبل أن تختلف فى كِتابهـا كما اختلف الذين من قبلهم فى كُتُبهم » .

ولم يتوانَ الخليفة لحظة ، فقد أرسل من فوره إلى مَن كان بالمدينة من أصحاب الرسول ، وشاوَرهم فى الأمر ، ثم قرر أن يكتب المصحف على حَرْفٍ واحد . وأن يجمع المسلمين فى عصره وإلى الأبد على قراءة

واحـــدة تكـــون هى القراءة « الأمّ » حتى يدفع هذا الاختـلاف المنذِر بالسوء .

واستدعى إليه « زيد بن ثابت » الذى قام بجمع القرآن فى عهد « أبى بكر » و « سعيـــد بن العاص » و « عبد الله بن الزبير » و « عبد الرحمن بن الحارث بن هشام » وشرح لهم مهمتهم وأوصاهم إذا اختلفوا فى شىء أن يكتبوه بلغة قريش .

وجاءهم الخليفة بالمصحف الأول ليكون دليلهم وأساس عملهم وكان « عمر » قد أودعه قبـــل استشهاده عند ابنته « حفصة » رضى الله عنهما .

وعند ما أنجز الأصحاب عملهم الجليل ، أمر الخليفة أن يُنسخ عدد من المصاحف ، وأرسل لكل إقليم من أقاليم الدولـة مصحفاً .

ومضى الكاتبون فى كل إقليم ينسخون لأنفسهم ولغيرهم مصاحف أخرى من هذا المصحف الجامع الذى سُمّى يومئذ ولا يزال يسمّى إلى يومنا هذا « مصحف عثمان » .

على أن المشكلة لم تُحلّ تماماً بظهور « مصحف عثمان » إلى الوجود . . فقد بقى منها طرَف ، كان أشدّ أطرافها حساسيّةً وأكثرها إحراجاً .

فقبل أن يتم بُزوغ هذا المصحف الجامع ، كانت هناك مصاحف أخرى لنفر من الصحابة ، وكان بينها اختلاف فى بعض الآيات نطقاً ورَسماً ، وكان الرسول عليه الســـلام قد أقرَّ أكثر هـــذه القراءات حين قال :

« أُنْزِلَ القرآنُ على سبعة أحرُف »

الأمر الذى نَتج عنه فيما بعد ظهور القراءات السبع المعروفة وكان « عثمان » فى إرادته حسم الخلاف والاختلاف ، وفى إيمانه المطلق بضرورة هذا الحَسْم ، لا يجد أمامه سوى اتجاه واحد هو جمع المسلمين جميعاً على مصحف واحد ، هو هذا الذى أنجزه وأقرّه . .

فماذا عساه يصنع بالمصاحف الأخرى ، وبالألواح التى كانت لا تزال موجودة عند بعض الصحابة حاملة عدداً من الآيات .

لقد جمعها جميعاً وأنهى مُهمتها . . مفسحاً مكانها للمصحف الواحد الجـامع يلتقى المسلمون حول آياته المباركات عَبر القرون تِلْوَ القرون .

* * *

هكذا أعطى « عثمان » عزمه الرشيد لمسئولياته الجِسام .

وملأ بصدقه وباقتداره وبإقدامه فراغاً كان يمكن أن يتحول إلى هُوَّة فاغرة تشدُّ إلى قيعانها الغائرة البعيدة كثيراً من مُقدَّرات الدين ومصاير المسلمين .

ولكن ، هل كانت ريح الخلافة تجرى رُخاءً خلال تلك السنوات التى ملأ الخليفة فيها دُنيا الإسلام فتحاً وخيراً . .

لعلها كانت كذلك لوقت قصير ، قد لا يجاوز العامين أو الثلاثة . . أمـا ما بقى بعـد ذلك من سنـوات الخلافـة الطـوال ، فقد تحولت الريح الباردة الهادئة إلى عاصفة ، أخذت تتجمع شيئاً فشيئاً وينادى بعضها بعضاً حتى تحولت إلى إعصار كُتب على الخليفة الشيخ

أن يواجهه وحده فى محنة هبطت بها شراسة المتآمرين إلى السفح . . وارتفع بها تسامح الخليفة إلى القِمَّة . . ! !

وقد آن لنا الآن أن نصحب التاريخ إلى تلك السنوات التى شهدت نشأة وتطوُّرَ ونهاية الأحداث التى لا تزال ذكراها تفجع الأنفس وتُروِّع الأفئدة ؛ برغم احتجابها وراء أربعة عشر قرناً من الزمان ! !